حققه وقدم له وترجم لوشاحيه

هِلالْ ناجي

اعد اصلا من أصليه

محمّد ماضُور

٩١٦

جيش التوشيح

تصنيف

لسان الدين ابن الخطيب

المتوفى سنة ٧٧٦ هـ

مطبعة المنار - تونس

بين يدي الكتاب

٥٩١٦

ترجمة المصنف :

هو محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد السلماني ، كنيته ابو عبد الله ، وشهرته لسان الدين ابن الخطيب .

في عام (٧١٣) هـ . ولد بلوشة على مسافة ٥٥ كيلو مترا غربي غرناطة ، واصل اسلافه من قرطبه ثم شردوا عنها بعد وقعة الربض المشهورة وكانوا يعرفون بني الوزير ، حتى اشتهر منهم سعيد الجد الاعلى للسان الدين بالخطابة في شؤون الدين فعرفوا بني الخطيب .

وكان ابوه وزيرا للسلطان ابي الوليد اسماعيل النصري ثم لابنه السلطان محمد ثم لاخيه يوسف من بني الاحمر حتى استشهد في موقعة – طريف – عام ٧٤١ هـ ، وكان شاعرا .

ولقد درس لسان الدين في غرناطة على يد جملة من اشياخ العلم والادب منهم : ابن مرزوق التلمساني وابن الفخار البيرى وابن الجياب وابن الحكيم وبن هذيل التجيبي ، وقد ترجم في الاحاطة والتاج المحلى ونفاضة الجراب وعائد الصلة لعدد ضخم من شيوخه ، ثم نقل المقرى في نفح الطيب كثيرا من هذه التراجم فحفظ لنا ما كاد ان يضيع بضياع الاصل .

ولقد كانت حادثة استشهاد والد لسان الدين سببا لتقريبه من سلطان غرناطة فلما مات ـ ابن الجياب ـ استاذ ابن الخطيب بالطاعون عام ٧٤٩ هـ . وكان وزير السلطان وكاتبه ، ولاه السلطان الوزارة والكتابة خلفا لاستاذه .

ثم استوزره ابنه الغني بالله محمد بعد مقتل السلطان يوسف بن اسماعيل سنة ٧٥٥ هـ . فلما ثار اسماعيل بن يوسف على اخيه الغني بالله سنة ٧٦٠ هـ

وقتل الحاجب رضوان ، هرب الغني بالله الى وادى آش وسجن ابن الخطيب وصودرت املاكه ، فتدخل سلطان المغرب – ابو سالم المريني – ليسمح للغني بالله بالعبور الى المغرب وليطلق سراح ابن الخطيب فتم له ذلك بما له من نفوذ كبير في غرناطة ، فوصلا مدينة – فاس – في المحرم من سنة ٧٦١ هـ . وأقام لسان الدين بمدينة سلا .

وقد استطاع الغني بالله استرداد ملكه في جمادى الثانية سنة ٧٦٣ هـ فعاد لسان الدين الى غرناطة وتبوأ مكانته السابقة .

ويبدو ان نكبته هذه قد أثرت في نفسه تأثيرا كبيرا فرجا سلطانه الاذن له بالهجرة الى بيت الله الحرام فاقنعه بالبقاء الى جانبه . ويبدو ان ازدياد نفوذ ابن الخطيب وانفراده بالحل والعقد ، قد أوغر عليه قلوب حاسديه من بطانة السلطان وحاشيته فاتفقوا على اثارة النفرة بينه وبين السلطان فكان لهم ما أرادوا .

وكانت لابن الخطيب على سلطان المغرب عبد العزيز المريني يد ، سببها مساعدته في الايقاع بعبد الرحمان المريني ووزيره بن ما ساى وكانا قد لجئا لغرناطة ، فلما احس ابن الخطيب بتغير الغني بالله عليه بمساعي حساده وفي رأسهم ابن زمرك والقاضي النباهي ، تظاهر بتفقد الثغور ولجأ الى جبل الفتح بعلم من سلطان المغرب فحملته سفينة الى سبتة ثم قصد السلطان في تلمسان سنة ٧٧٣ هـ . فاكرمه اجل الكرام واوفد سفيراله الى غرناطة فجاء باهله وولده . وفي غرناطة اتهمه حاسدوه – بعد ان خلا الجو لهم – بالزندقة وافتى النباهى باحراق كتبه فاحرقت بمحضر من الملأ . ورجا سلطان غرناطة من سلطان المغرب تنفيذ الحكم الشرعي في ابن الخطيب فرفض ذلك ، ثم لما مات السلطان المغربي سنة ٧٧٤ هـ ، جدد سلطان غرناطة طلبه من الوزير ابن غازى وكان قائما بامر السلطان الصغير محمد ابن عبدالعزيز ، فرد طلبه . ثم نشب صراع دموى مرير على سلطنة المغرب حتى استقر الامر للسلطان احمد بن ابي سالم المريني سنة ٧٧٥ هـ . وقد ساعده على ذلك ابن الاحمر سلطان غرناطة مشترطا : التنازل له عن جبل الفتح وتوقيع العقوبة بابن الخطيب فكان له ماأراد . وقد بعث الغني بالله ابن الاحمر وزيره وكاتبه ابن زمرك ليشهد مصرع استاذه ابن الخطيب وتلك آية في نكران الجميل عبر العصور .

وحوكم ابن الخطيب بتهمة الزندقة استنادا لعبارات وردت في كتابه – روضة التعريف بالحب الشريف – فعذب ، وافتى بقتله ، ونقل الى السجن ، ثم بعث له شيخ الشورى (سليمان بن داود) بعض القتلة من اتباعه وخدم ابن الاحمر فطرقوا السجن ليلا وقتلوه خنقا في نهاية عام ٧٧٦ هـ . وقبر بباب المحروق ، ثم اخرجت جثته وأضرمت فيها النار واعيد الى قبره ، ومرت قرون حتى جاء المرحوم الملك محمد الخامس ملك المغرب فامر ببناء ضريح لائق على موقع قبره قبل سنوات قلائل وسمى المستشفى المشيد بقربه مستشفى لسان الدين ابن الخطيب ، فاعاد لهذا الرجل العظيم بعض حقه الهضيم .

أولاده وتلامذته : خلف ابن الخطيب ثلاثة أولاد وهم : عبد الله ومحمد و على

فأما عبد الله فقد كتب لبعض أمراء المغرب ، وانقطع محمد الى التصوف وعزف عن الدنيا ، وكان علي شاعرا واختص بالسلطان احمد ابن ابي سالم المريني .

واما تلامذته فكثيرون ، أشهرهم : ابن زمرك الوزير الشاعر ، وابن المهنا الطبيب والقاضي ابن جزى االكلبي وابو عبد الله الشريشي وسواهم .

آثاره : كان ابن الخطيب عقلا موسوعيا ألف في مختلف العلوم والفنون واستوى على جدران المعرفة بكفاءة فذة وقد جاوزت آثاره الخمسين كتابا ورسالة ، ضاع كثير منها ولا سيما ما ألفه في التصوف والموسيقى والفلسفة ويبدو انه احرق فيما احرق بغرناطة سنة ٧٧٣ هـ . وآثاره الباقية اليوم صنفان : مطبوع ومخطوط .

فمن المطبوع : ١ ــ الاحاطة في اخبار غرناطة – نشر منها جزءان في القاهرة سنة ١٣١٩ هـ بدون تحقيق ثم نشر الاستاذ محمد عبد الله عنان سنة ١٩٥٥ في القاهرة الجزء الاول محققا تحقيقا عليما . والمطبوع في الواقع هو من مختصر الاحاطة . ٢ ــ الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالاندلس من شعراء المائة الثامنة . نشره الدكتور احسان عباس في بيروت ضمن منشورات دار الثقافة ـ ١٩٦٣ . ٣ – اللمحة البدرية في الدولة النصرية . نشر في القاهرة سنة ١٣٤٧ هـ . ٤ – رقم الحلل في نظم الدول . نشر في تونس سنة ١٣١٦هـ . وسماها لسان الدين في بعض مؤلفاته باسم آخر وهو « قطع السلوك بنظم الملوك » .

٥ – خطرة الطيف فى رحلة الشتاء والصيف ـ ٦ – مفاخرات ما لقة وسلا ـ ٧ – معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار .

والكتب المرقمات ٥، ٦، ٧ المتقدمة الذكر نشرها المستشرق الالماني مولر في كتابه « نخب من تاريخ المغرب العربي » – مونيخ سنة ١٨٦٦ ، ثم اعاد نشرها الدكتور احمد مختار العبادي في كتابه : مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب – الاسكندرية ١٩٥٨ ـ ٨ – نفاضة الجراب في علالة الاغتراب – نشر جزء صغير منه ضمن كتاب « مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب » للدكتور احمد مختار العبادى والمخطوطة المتبقية منه هي جزء من اربعة اجزاء ومحفوظة بالاسكوريال ـ ٩ – أعمال الاعلام فيمن ويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام – نشر ليفي بروفنسال جزأين منه في الرباط سنة ١٩٣٤ ثم اعاد نشرهما في بيروت سنة ١٩٥٦ ، ثم نشر الاستاذان محمد ابراهيم الكتاني واحمد مختار العبادى جزءا ثالثا في الدار البيضاء سنة ١٩٦٤ ـ ١٠ – مقنعة السائل عن المرض الهائل – نشرته مجلة اكاديمية العلوم البافارية بالمانيا سنة ١٨٦٣

ومن المخطوط :

١ – السحر والشعر : منه نسختان بالاسكوريال ونسختان بالرباط ونسخة بتونس ٢ – ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب : منه نسخ بالاسكوريال ومكتبة مدريد الوطنية ومكتبة الفاتيكان ومكتبة ابسالا بالسويد ـ ٣ – كناسة الدكان بعد انتقال السكان : منه نسخة بالاسكوريال ـ ٤ – عمل من طب لمن حب : منه نسخة في مكتبة مدريد الوطنية ونسخة في القرويين ـ ٥ – الوصول في حفظ الصحة في الفصول : منه نسخة في برلين ـ ٦ – روضة التعريف بالحب الشريف : منه نسخة بدمشق ونسخ بفاس ـ ٧ – التاج المحلى في مساجلة القدح المعلى : منه جزء ضمن المخطوط رقم ٥٥٤ بمكتبة الاسكوريال ـ ٨ – رسالة في السياسة : مخطوط في الاسكوريال ـ ٩ – الاشارة الى ادب الوزارة في السياسة : مخطوط في الاسكوريال ـ ١٠ – جيش التوشيح – وهو هذا الكتاب –

وأما آثاره المفقودة فمنها :

١ – بستان الدول ـ ٢ – تخليص الذهب في اختيار عيون الكتب الادبيات الثلاثة ـ ٣ – الاكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر ـ ٤ – اليوسفي في صناعة الطب ـ ٥ – استنزال اللطف الموجود باسرار الوجود ـ ٦ – طرفة العصر في دولة بني نصر ـ ٧ – مثلى الطريقة في ذم الوثيقة ـ ٨ – عائد الصلة ـ ٩ – خلع الرسن في أمر القاضي ابي الحسن ـ ١٠ – النقاية بعد الكفاية ـ ١١ – الصيب والجهام والماضي والكهام ، وهو ديوان شعره ـ ١٢ – الحلل المرقومة في اللمع المنظومة : وهي ألفية في اصول الفقه ـ ١٣ – الارجوزة المسماة ـ المعلومة ـ في الطب ـ ١٤ – الارجوزة المسماة ـ المعتمدة في الاغذية المفردة ـ ١٥ – ارجوزة في السياسة المدنية ـ ١٦ – الرجز في عمل الترياق الفاروقي ـ ١٧ – مجلد في البيطرة ـ ١٨ – تكون الجنين ـ ١٩ – مجلد في البيزرة ـ ٢٠ – الغيرة على اهل الحيرة ـ ٢١ – حمل الجمهور على السنن المشهور ـ ٢٢ – الزبدة الممخوضة ـ ٢٣ – الرد على اهل الاباحة ـ ٢٤ – سد الذريعة في تفضيل الشريعة ـ ٢٥ – تقرير الشبه و تحرير الشبه ـ ٢٦ – ابيات الابيات وهو مختار من مطالع شعره ـ ٢٧ – فتات الخوان ولقط الصوان : مقطوعات من شعره ٢٨ – الدرر الفاخرة واللجج الزاخرة : مجموع من شعر ابن صفوان احمد ابن ابراهيم. ٢٩ – تافه من جم وتقطة من يم : مجموع من نثر استاذه ابن الجياب ـ ٣٠ – المباخر الطيبة في المفاخر الخطيبية ـ ٣١ – المسائل الطبيه ـ ٣٢ – مجموع من شعر استاذه ابن الجياب .

تلك الممة عابرة با ثار ابن الخطيب لا ازعم لها الاستقصاء ولا التفرد ، ذلك انه حتى المختصين بدراسة ابن الخطيب وقعوا في عديد من الاخطاء حين حاولوا حصر تلك الآثار فخيل لهم ذلك . منهم على سبيل المثال الاستاذان محمد بن ابي بكر التطواني ومحمد عبد الله عنان . فالتطواني في كتابه – ابن الخطيب من خلال كتبه – في جزئيه ، حاول تتبع آثار ابن الخطيب وبذل جهدا ضخما وجديا في التعريف بها ، لكنه ذهل وهو يبذل جهده القيم عن بعض امور نرى من الضروري التنبية اليها لان كتابه ، كان وما يزال ، مرجعا اساسا لكل من يحاول التعرف على آثار العلامة لسان الدين ، من هذه الامور :

١ – انه ذهل عن كون ارجوزة (الحلل المرقومة في اللمع المنظومة) هي ألفية من ألف بيت في أصول الفقه . وعبارة لسان الدين عند ذكرها في ذيل الاحاطة واضحة

وقد حسبها التطواني كتابين لا كتابا واحدا فذكر للسان الدين (الحلل المرقومة في اللمع المنظومة) ككتاب مستقل . وذكر له (ألفية في اصول الفقة) ككتاب آخر (ج ١ ص ٦٢)

٢ — كذلك حسب (خطرة الطيف) رسالة مستقلة عن (رحلة الشتاء والصيف) وأعطى لكل منهما رقما مستقلا (ج ١ ص ٦٣) وهو سهو صوابه انهما رسالة واحدة عنوانها خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف ـ طبعها مولر ثم طبعها الدكتور احمد مختار العبادي سنة ١٩٥٨ - ٣ — لابن الخطيب كتاب اسمه — تقريب الشبه وتحرير الشبه — وهو من آثاره المفقودة ، وقد ظن التطواني ان (تقريب الشبه) كتاب و (تحرير الشبه) كتاب آخر وذيل الاحاطة والنفح لا يساعدان على هذا التفسير .

٤ — وعند تعريفه بارجوزة (الحلل المرقومة في اللمع المنظومة) (ج ٢ ص ٨٨) ذكر ان هذه الارجوزة موجودة وان بروكلمان قد أشار الى وجودها في مكتبة باريس تحت رقم ٥٠٢٦ وهذا غير صحيح ، لان الارجوزة الموجودة بمكتبة باريس تحت الرقم المذكور هي رقم الحلل في نظم الدول — وهي ارجوزة تاريخية سبق نشرها في تونس .

وفيما يلي ترجمة ما كتب تحت الرقم ٥٠٢٦ من فهرست مخطوطات مكتبة باريس :

— رقم الحلل في نظم الدول —

تاريخ خلفاء ودول المغرب في أبيات شعرية مع شرح للسان الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن الخطيب السلماني الاندلسي .

نسخي مغربي مؤرخ في سنة ١٣٠٠ هـ

٤٦ ورقة — ٢٤ سنتمتر على عشرة سنتمترات ونصف السنتمتر .

* * *

أما « الحلل المرقومة في اللمع المنظومة » فهي من آثار لسان الدين المفقودة حتى اليوم .

٥ — انه لم يهتد الى مظنة وجود — جيش التوشيح — هذا .

* * *

واشتبه الامر على الاستاذ محمد عبد الله عنان فظن :

١ — ان « نفاضة الجراب في علالة الاغتراب » الموجود في الاسكوريال برقم ١٧٥٥ قد

وصل الينا كاملا . والحقيقة انه السفر الثاني من اربعة اسفار (الاحاطة ص ٢٧)

٢ — وقال عن (رقم الحلل في نظم الدول) انه يسمى احيانا بالحلل المرقومة ثم عاد يؤكد انهما اسمان لنفس المؤلف (الاحاطة ص ٧١) . والواقع ان (رقم الحلل في نظم الدول) هو ارجوزة تاريخية طبعت بتونس سنة ١٣١٦ هـ . ومنها نسخ مخطوطة في الاحمدية بتونس ومكتبة باريس ومكتبة مدريد الوطنية ودار الكتب المصرية وسواها .

اما الحلل المرقومة في اللمع المنظومة — فهي ألفية من الف بيت في اصول الفقه مفقودة حاليا ذكرها لسان الدين في ذيل الاحاطة بصورة مستقلة عن الارجوزة الاولى وعبارته التي نقلها صاحب النفح — ج٩ ص ٣٠٤ — في هذا الصدد واضحة غاية الوضوح فلا مجال للاشتباه

٣ — ذهب به الظن الى ان محتوى كتاب — السحر والشعر — طائفة من القصائد تتعلق بالوصايا (الاحاطة ص — ٧٢) والصواب انه مختارات لنحو الثلاثمائة شاعر في مختلف الاغراض الشعرية من مدح ونسيب ووصف وحكم وزهد وملح . ويمكن ان نضيف لنسختي — الاسكوريال اللتين ذكرهما الاستاذ عنان نسخة دار الكتب الوطنية بتونس ونسختين بالمكتبة العامة بالرباط .

٤ — وقال في الاحاطة ص ٧٧ ما نصه : واختار ابن الخطيب من شعره ، او اختار له بعض تلاميذه « الديوان » اى ديوان شعره ، ولم يصل الينا هذا الديوان .

وهذا الكلام غير دقيق علميا فقد ذكر ابن الخطيب بقلمه عند ترجمته لنفسه في الاحاطة وتعداده لتآليفه ما نصه :

وديوان شعري في سفرين سميته (الصيب والجهام والماضي والكهام) واضاف المقرى الى الديوان المذكور ديوانين آخرين عنوان الاول : أبيات الابيات : ذكر ان ابن الخطيب اختاره من مطالع ما له من الشعر .

وعنوان الثاني : فتات الخوان ولقط الصوان : في سفر واحد ويتضمن المقطوعات الشعرية .

ثم ان ديوانه لم يفقد نهائيا اذ توجد منه قطعة في القرويين بفاس ومجموعة في الزاوية العياشية بالمغرب ومجموعة في برلين وغوطا تضم شعرا وموشحات . على ان شعر ابن الخطيب المتناثر في مؤلفاته وفي النفح وازهار الرياض لو اتيح له من يجمعه ويعنى به لخرج على الناس ديوانا ضخما .

٥ – قال : «الاكليل الزاهر فيمن فضل عند نظم التاج والجواهر »

والصواب : من الجواهر . اذ اعتبره ذيلا وتكملة لكتابه التاج المحلى ونعت من ترجم لهم ، بالجواهر . والواو هنا قد توهم بان لابن الخطيب كتابا باسم الجواهر – وهو غير صحيح . .

٦ – أغفل ذكر بعض مؤلفات ابن الخطيب التي ذكرها المقرى في النفح ج ٩ ص ٣٠٦ مثل :
١ – الغيرة على أهل الحيرة . ٢ – حمل الجمهور على السنن المشهور . ٣ – الزبدة : الممخوضة . ٤ – تقرير الشبه وتحرير الشبه . ٥ – الرد على اهل الاباحة . ٦ – سد الذريعة في تفضيل الشريعة

* * *

والواقع ان هذا السهو والذهول لم يسلم منه أحد ، وليس من اغراض هذه المقدمة التصدى له فحتى دوائر المعارف الكبرى – المعلمات – لم تسلم منه فمما جاء في آخر معالمه وهي – دائرة المعارف – التي اشرف عليها الاستاذ فؤاد افرام البستاني (ج ٣ ص ١١) ما يلي نصا : وكتاب (عمل من طب لمن حب) مصنف في الطب اثنى عليه صاحب (النفح) فقال : منزلته في الصناعة الطبية بمنزلة كتاب عمرو بن الحاجب المختصر في الطريقة الفقهية ، لا نظير له والواقع ان هذا الكلام ليس لصاحب النفح – المقرى – بل هو لابن الخطيب وبقلمه مثبت في ذيل الاحاطة ولقد جرت العادة ان يذكر في المقدمة شيء عن اهمية المؤلف وشأنه ، وابن الخطيب في رأيي في غنى عن هذا كله ، حسبنا ان نذكر ان حياته قد استمد منها الروائيون الاقاصيص الطويلة كالكاتب المغربي الكبير عبد الهادي بوطالب في روايته الممتعة – وزير غرناطة –

وان كتبا مخصوصة قد افردت له مثل كتاب : «الفلسفة والا خلاق عند ابن الخطيب » للباحث المغربي الثبت عبد العزيز بن عبد الله . وكتاب « ابن الخطيب من خلال كتبه » للسيد محمد ابن ابي بكر التطواني وعلى اسمه صنف ـ المقرى ـ كتابه الجامع ـ « نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب »

لذلك فان الحديث عن عظيم مكانته غير وارد عندنا ورحم الله القائل :

وليس يصح في الاذهان شيء　　اذا احتاج النهار الى دليل (❀)

❀ راجع :

ابن العماد : شذرات الذهب ٦ : ٢٤٤ ـ ٢٤٧ ، الشوكاني : البدر الطالع ٢ : ١٩١ ـ ١٩٤ ، التنبكتي : نيل الابتهاج ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، حاجي خليفة : كشف الظنون ١٥ ، ٩٧ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ٢٧٠ ، ٨٠٨ ، ٩١١ ، ٩٢٥ ، ١١١٠ ، ١٧٧٩ ، ٢٠٢٨ ، البغدادى : ايضاح المكنون ١ : ٧٣ ، ١٨٠ ، ٢١٠ ، ٢١٩ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٣١٤ ، ٣٨٨ ، ٤١٨ ، ٤٢٣ ، ٤٣١ ، ٤٣٨ ، ٤٦٧ ، ٦٠٥ ، ٦١٢ ، ٢ : ٦ ، ٣٢ ، ٧٢ ، ٩١ ، ١٢٥ ، ١٥٢ ، ٢٣٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥٢ ، ٣٨٢ ، ٤٠٩ ، ٤٢٢ ، ٤٢٧ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٥٠٨ ، ٥١٥ ، ٥٧٦ ، ٦٦٢ ، ٦٧٤ ، ٧١١ ، ٧٣٢ ، الكتاني : فهرس الفهارس ١ : ٢٨١ ، ٢٨٢ ، البغدادى : هدية العارفين ٢ : ١٦٧ ، ١٦٨ ، تاريخ الفكر الاندلسي ٢٥٢ ، ٢٥٩ ، الزركلي : الاعلام ٧ : ١١٢ ، ١١٣ . وج ١٠ ص ٢١٠

المقرى ـ نفح الطيب ـ الاجزاء ٦ ـ ١٠ .

المقرى : أزهار الرياض ج ١ ص ١٨٦ .

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٧ ص ٣٣٢ ـ ٣٤١ .

جرجي زيدان : تاريخ اداب اللغة العربية : ج ٣ ص ٢٣٠ ـ طبعة منقحة ـ دار الهلال

السلاوى : الاستقصا : ج ٢ ص ١٣٢ .

محمد علي الطنطاوي : مقدمة (اللمحة البدرية في الدولة النصرية) .

محمد عبد الله عنان : مقدمة ـ الاحاطة ـ الجزء الاول.

دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص ١٥٠ .
ابن حجر : الدرر الكامنة : ج ٤ ص ٨٨
البستاني : دائرة المعارف ج ٣ ص ١٦ .
ابن القاضي : جذوة الاقتباس : ج ٢
عبد العزيز بن عبد الله : الفلسفة والاخلاق عند ابن الخطيب
محمد بن ابى بكر التطواني : « ابن الخطيب من خلال كتبه »
ابن الاحمر : نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان : ص٢٤٢
ابن تغرى بردى : المنهل الصافي : ج ٣ ص ١٨٧
ابن الخطيب ترجمته لنفسه في ذيل كتابه ـ الاحاطة ـ
ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا
يحي ابن خلدون : بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد
الزركشي : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية
احمد بابا التمبكتي : نيل الابتهاج بتطريز الديباج
ابن القاضي : درة الحجال
ابن القاضي : المنتقى المقصور
ابن القاضي : لقط الفرائد
ابو الوليد العراقي : الدر النفيس
القاضي ابن الحاج : رياض الورد
ابن عجيبة : ازهار البستان
الزياني : الروضة السليمانية
ابن عمار الجزائري : فوائد الرحلة
محمد بن جعفر الكتاني : سلوة الانفاس
عباس بن ابراهيم : الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام
الكانوني : جواهر الكلام
ابو جندار : شاله وآثارها
الحفناوى : تعريف الخلف برجال السلف
ابن قنفذ : شرف الطالب في اسنى المطالب
الفشتالي : الوفيات
ابن زاكور : المعرب المبين
الوداني : الاعلام بوفيات العلماء الاعلام
جميل العظم : عقود الجوهر فيمن له خمسون مؤلفا فأكثر
احمد عيسى : الذيل على طبقات الاطباء

التحقق من اسم الكتاب ونسبته الى مؤلفه :

بعض الذين ترجموا لابن الخطيب وتحدثوا عن كتبه حديثا مفصلا ذهب بهم الظن الى الاعتقاد بضياع هذا الكتاب ، ومن هؤلاء الباحث المغربي السيد محمد ابن ابي بكر التطواني في كتابه ابن الخطيب من خلال كتبه (١) فهو لم يعرف له مقرا وذهب به الظن مذاهب شتى . وحتى الذين توصلوا الى معرفة وجود مخطوطة من هذا الكتاب بجامع الزيتونة في تونس وصفوها وصفا مغايرا للحقيقة . فالاستاذ محمد عبد الله عنان في مقدمته القيمة لكتاب الاحاطة في اخبار غرناطة يذكر ما نصه : (٢) (وجمع ابن الخطيب مجموعة مختارة من موشحات ائمة التوشيح بالاندلس ، مثل ابن بقي ، وابن اللبانة . والاعمى التطيلي ، وعباده القزاز ، وابن لبون وابي بكر السرقسطي وغيرهم . في كتاب سماه (جيش التوشيح) والظاهر انه قام بتصنيفه اثناء مقامه بالمغرب برسم امير او سلطان حسبما يبدو ذلك من ديباجته القصيرة . وتوجد منه نسخة خطية بجامع الزيتونة بتونس ، تقع في نحو ١٢٠ لوحة متوسطة) وفي هذا الكلام ثلاثة مآخذ :

١ ـ ان عباده القزاز ليس من وشاحي جيش التوشيح .

٢ ـ ان ابن الخطيب صنف كتابه هذا ايام وجوده بالاندلس لا بالمغرب وقد ذكر ذلك في ترجمته لنفسه في ذيل الاحاطة .

٣ ـ ان الكتاب يقع في مائة وعشرة لوحات وليس في مائة وعشرين لوحة .

ويبدو ان الدكتور احسان عباس قد تأثر بما ذكره الاستاذ عنان عن جيش التوشيح فذكر بدوره عباد القزاز بين وشاحي هذا الكتاب وهو ليس منهم (٣) .

سؤالان يثوران في الخاطر أولهما هل ألف ابن الخطيب كتابا باسم جيش التوشيح ؟

---

(١) ج ٢ ص ١٢٣ ـ (٢) ج ١ ص ٧٧

(٣) تاريخ الادب الاندلسي عصر الطوائف والمرابطين ـ ص ٢١٩

والجواب بالايجاب ودليلنا عليه :

١ ـ ان ابن الخطيب في ذيل الاحاطة قد ذكر كتاب جيش التوشيح ضمن مؤلفاته التي صنفها قبل الانتقال من الاندلس وذكر انه في سفرين .

٢ـ أن كثيرا ممن ترجموا له ذكروا كتاب جيش التوشيح ضمن مؤلفاته ، قال المقري في نفح الطيب (١) ما نصه : وقد ألف رحمه الله تعالى في هذا الفن كتابه المسمى بجيش التوشيح .

ثانيهما ـ هل ان هذا المخطوط هو جيش التوشيح ؟ وهل ان نسبته لابن الخطيب صحيحة ، والجواب بالايجاب ايضا . ودليلنا عليه ما يلي :

١ ـ أن الورقة الاولى من مخطوطة السيد حسن حسني عبد الوهاب قد ورد فيها ما نصه (جيش التوشيح لابن الخطيب السلماني رحمه الله ؛

٢ ـ أن الورقة الاولى من مخطوطة الزيتونة قد ورد فيها في موضع التحبيس اسم الكتاب واسم مؤلفه (جيش التوشيح لابن الخطيب)

٣ ـ انه قد وجد على ظاهر نسخة ثالثة من جيش التوشيح هذا يملكها احد الخواص وبخط الشاعر التونسي محمد الباجي المسعودي ما نصه : كنت اعرت هذا التأليف للشيخ سيدي محمد بيرم الرابع وأبطأ برده فكتبت اليه :

يا عمدتي في ذا الزمان وعدتي　　مهما ثنى دهرى عنان جموح
ها قد سطا جيش الهموم بخاطري　　فابعث له جيشا من التوشيح

٤ ـ ان مخطوطة كتاب (ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب) تأليف ابن الخطيب الموجودة منها نسخة كاملة بالاسكوريال تحت رقم ١٨٢٥ ونسخ أخرى نواقص في الفاتيكان وابسالا ومكتبة مدريد الوطنية ، قد وردت فيه تمهيدات عدد من مؤلفاته من بينها

---

(١) نفح الطيب ج ٩ ص ٢٧٧ وازهار الرياض ج ١ ص ١٩٠

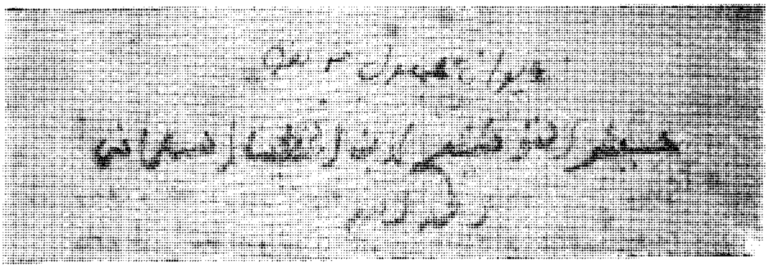

نموذج الورقة ١ ـ أ من مخطوطة الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب

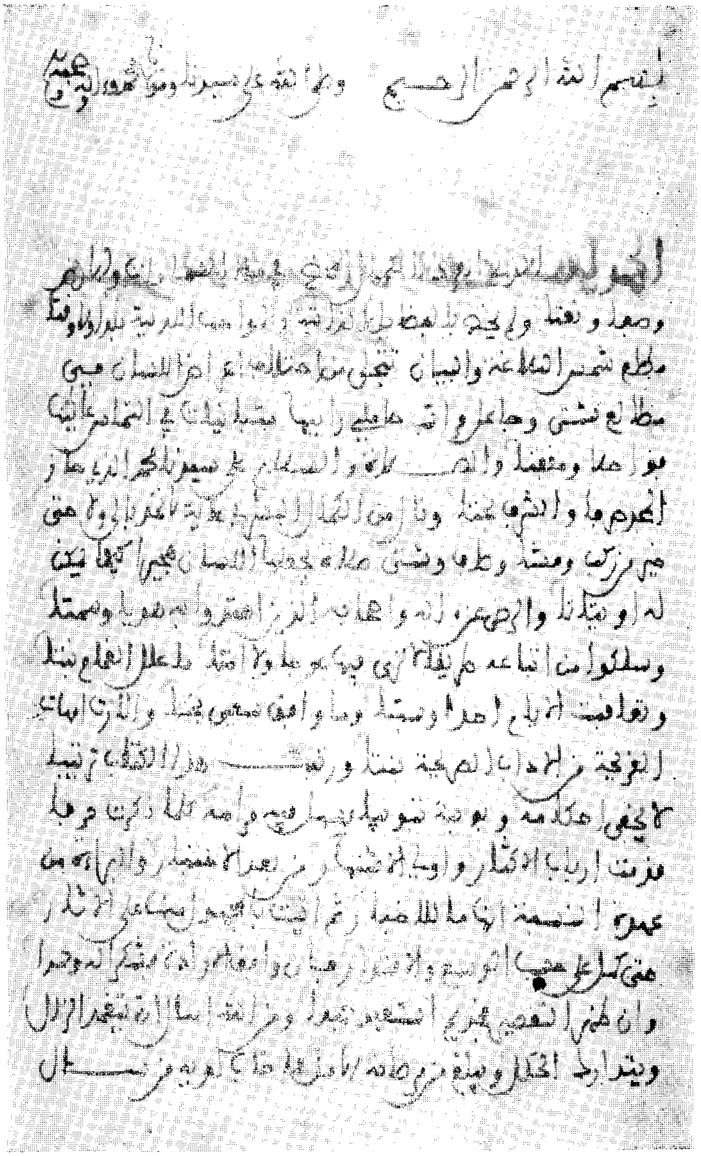

نموذج الورقة ١ ـ ب من مخطوطة الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب

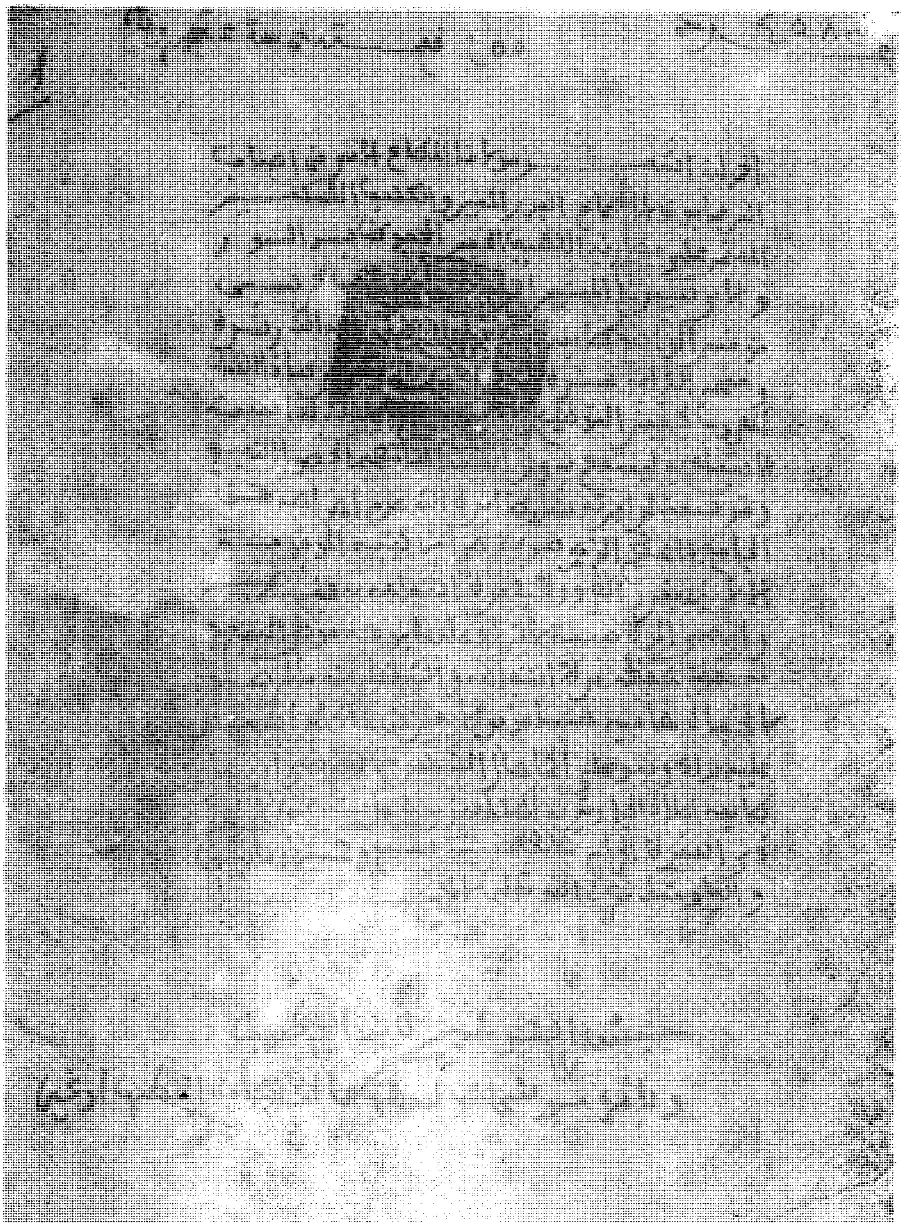

نموذج الورقة الاولى من مخطوطة الزيتونة وقد تضمنت تحبيس احمد باي لكتاب جيش التوشيح هذا على الجامع الاعظم بتونس سنة ١٢٥٧ هجرية

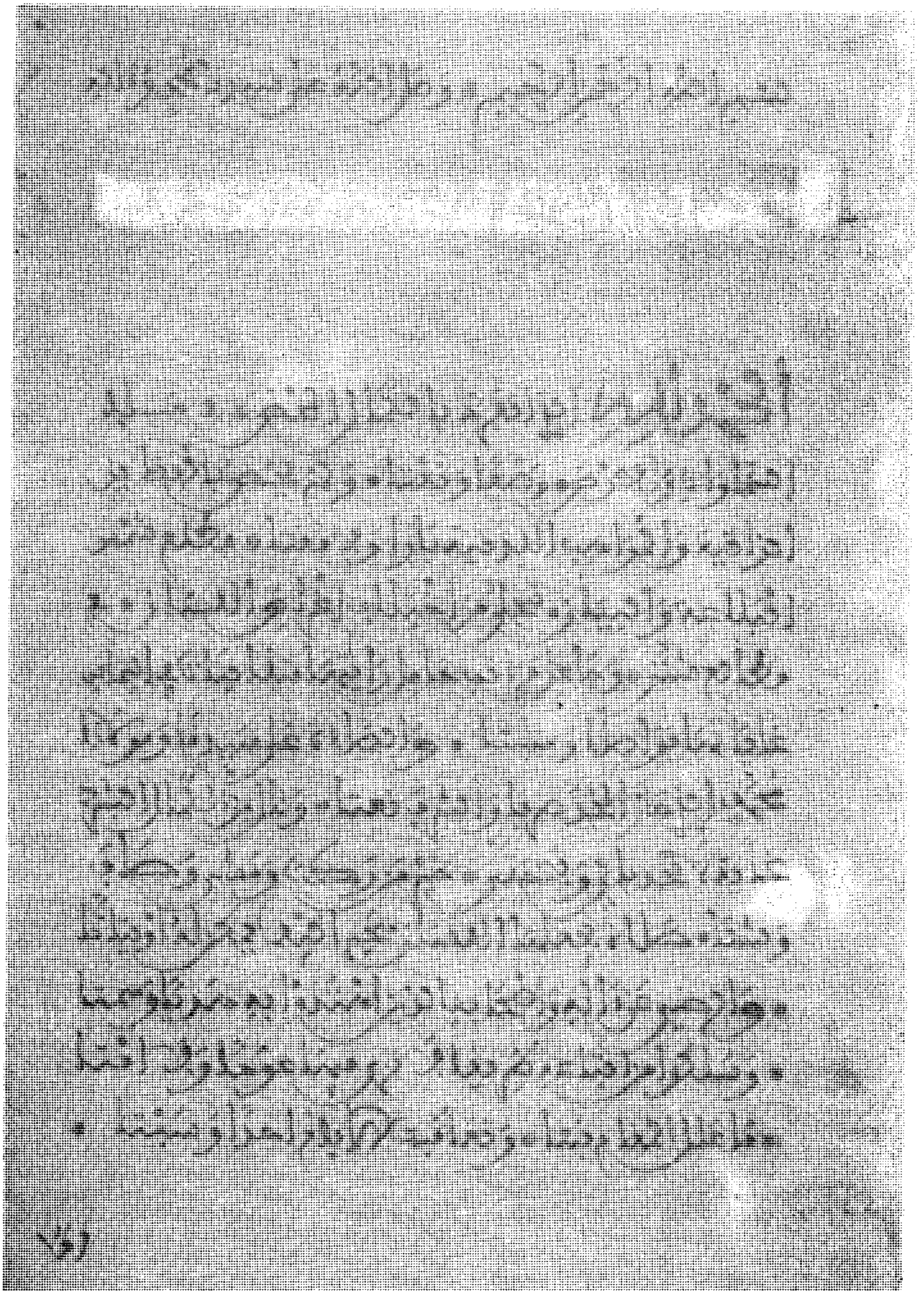

نموذج الورقة الثانية من مخطوطة الزيتونة وفيها بعض ديباجة الكتاب

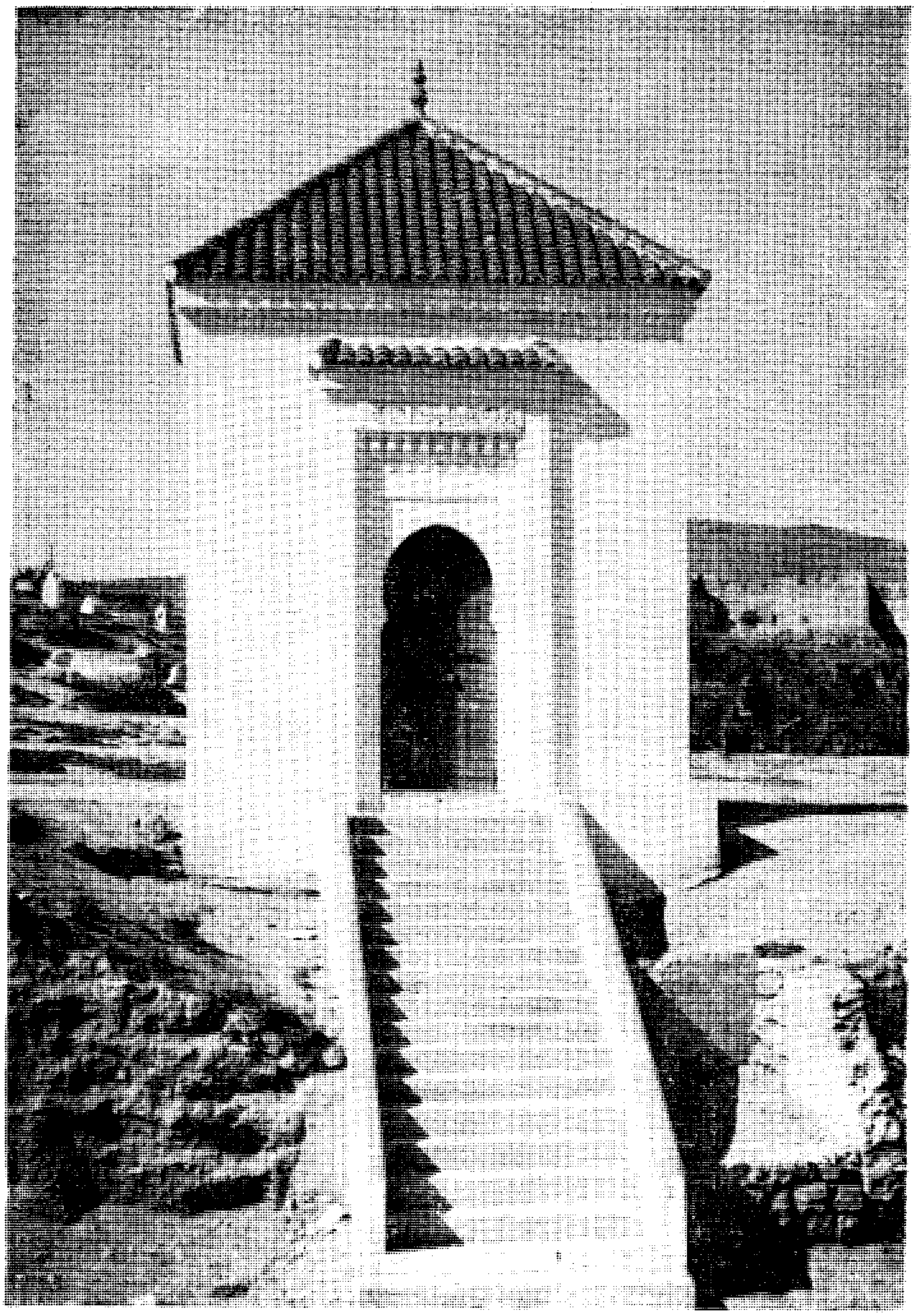

قبر لسان الدين بن الخطيب بباب المحروق في فاس كما هو اليوم

ديباجة كتابه جيش التوشيح ، وهذه الديباجة تطابق ديباجة كتابنا هذا تمام المطابقة مما يؤكد انه كتاب جيش التوشيح فعلا .

٥ ـ وبالاضافة لما تقدم يقوم الدليل الداخلي وهو تشابه الاسلوب دليلا على نسبة هذا الكتاب لابن الخطيب ، فالتراجم التي قدم بها ابن الخطيب لموشحات كل وشاح قد كتبت بنفس اسلوبه الذي ألفناه في الكتيبة الكامنة ، وهو اسلوب يدل على كاتبه وينم عليه .

وصف المخطوط :

لقد اعتمدت في تحقيق هذا الكتاب على مخطوطتين . المخطوطة الاولى هي مخطوطة الاستاذ الكبير حسن حسني عبد الوهاب عدد ورقاتها ٦٣ ورقة (١٢٦ صفحة) قياس الورقة ١٣ × ٢٠ سم وعدد سطورها يتراوح بين ٢٢ الى ٢٣ سطرا في الصفحة الواحدة ومعدل طول السطر ٨٫٥ سم وفيها نقص في المواضع التالية : ١ ـ من اول البيت الرابع من موشحات أبي بكر ابن رحيم (رقم الموشح ١٣٣) الى البيت الثاني من الموشح رقم ١٣٧ لابن رحيم .

٢ ـ من منتصف الموشح رقم ١٣٩ لابي عامر ابن ينق الى منتصف الموشح رقم ١٤٦ للوشاح ابن ينق .

٣ ـ من اول الموشح رقم ١٤٨ للحفيد ابن زهر الى آخر الكتاب .

وجدير بالذكر ان السيد حسن متعه الله بالصحة قد أكمل النقص الوارد في مخطوطته نقلا عن نسخة الزيتونة بخط يده على ورق حديث يختلف طبعا عن ورق المخطوط الاصلي .

والمخطوطة خطها مغربي دقيق للغاية استعمل فيه الناسخ المداد الاسود للنص والمداد الاحمر للعناوين والفواصل ، ولم يذكر في النسخة اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ ، ولكن نوع الورق

والخط المستعمل يرجح كون المخطوط يعود الى ما قبل اربعة قرون . وهو بهذا اقدم نسخة خطية من هذا الكتاب . ولما كانت النسخة مغربية الخط فقد اتبع الناسخ قواعد الخط المغربي ككتابة القاف بنقطة واحدة والفاء بنقطة تحتانية وهو يكتب بعض الكلمات مثل لكن . بالطريقة المغربية أي - لاكن - وهو كثير الخلط بين الالف المقصورة والياء وبين الضاد والظاء وكل ذلك وسواه اصلحته دون الاشارة اليه ، اذ ما ذنب علامة كابن الخطيب في ان يتحمل من اخطاء النساخ بعد وفاته فوق الذي تحمله من حساده ايام حياته . ولا توجد في نسخة السيد حسن تعقيبات وتعليقات او اجازات وتمليكات وقد اكتفيت باثبات صورة وجه الورقة الاولى وقفاها من المخطوطة المذكورة .

واما المخطوطة الثانية فهي مخطوطة الزيتونة - محفوظة في الاحمدية تحت رقم ٤٥٨٣ - عدد صفحاتها ١١٠ صفحات ، معدل سطورها ٢٧ سطرا في الصفحة الواحدة وقياسها ١٥ × ١٨ سم خطها مغربي فاسي ، لم يذكر فيها الناسخ ولا تاريخ النسخ واستخدم الناسخ فيها المداد الاسود والاخضر والاحمر . ويبدو من نوع الورق والخط انها متأخرة فهي تعود في الاغلب الى اوائل القرن الثالث عشر الهجري . وقد اوقفها (حبسها) احمد باي على الجامع الاعظم - (الزيتونة) - في ذي القعدة من سنة ١٢٥٧ هجرية ومتن النسخة الزيتونية ينتهي في الصفحة (١١٠) الا ان الناسخ قد الحق بالمتن بضعة موشحات ليست من اصل الكتاب ، وهي موشحات معروفة ومنشورة في دار الطراز وفي عيون الانباء في طبقات الاطباء وقد استغرقت هذه الموشحات ١٢ صفحة .

والنسخة الزيتونية كاملة رغم حداثتها بالنسبة للمخطوطة الاولى ، وكانت ذات فائدة كبرى لي في مواضع النقص من نسخة الاستاذ حسن عبد الوهاب .

ولكن فيما عدا مواضع النقص التي عرضت لها تفصيلا فيما تقدم فان بين المخطوطتين تشابها كبيرا في مواضع البياضات وفي الكلمات غير المقروءة وفي الاخطاء ، مما يحمل على الظن انهما نسختا عن اصل واحد .

لكن من أمانة العلم ان أذكر أن نسخة الزيتونة كانت قد استعيرت من قبل

بعض الفضلاء قبل عدة اعوام وظلت بعيدة عن متناول الباحثين اعواما طوالا - وانا منهم على كثرة مراجعتي - حتى اذا يئست من الظفر بها ودفعت بالمخطوط الى المطبعة وقطعت شوطا في ذلك، أعيدت المخطوطة الى موطنها، فصورتها واعتبرتها أما في مواضع النقص من مخطوطة السيد حسن. فاما الخلافات في الروايات بين النسختين فقد أثبته بجدول مستقل، كما أثبت التعليقات في آخر الكتاب عملا بطريقة بعض المستشرقين الاثبات الذين ارتأوا الا يشغل القارىء بحشد من الهوامش عن تذوق النص واستجلاء جماله.

خطة التحقيق :

يمكن تلخيص خطتنا في تحقيق هذا الكتاب في الآتي :

١ - تولى صديقي الكريم الشيخ محمد بن محمد ماضور السليماني الاندلسي قراءة مخطوطة السيد حسن وفك غوامضها ثم أملاها في جلسات متعاقبة على كاتب طابعة وضعته تحت تصرفه، وقد بذل الاخ الكريم في ذلك جهدا ضخما نظرا لان المخطوطة مكتوبة بخط مغربي دقيق للغاية وفيها من أوهام الناسخ الكثير، وكان من المتفق عليه ان حصته من العمل قاصرة على ذلك فحسب.

٢ - توليت بعد ذلك قراءة النص المكتوب بالطابعة. مصوبا اغلاط الراقن وبعض ما ند عن أخي الشيخ ماضور من أخطاء الناسخ، مثبتا الرواية الصحيحة، مهملا الاشارة الى اغلاط الناسخ الكثيرة الا حين يعسر فهم النص.

٣ - رقمت الموشحات بحسب تسلسلها في المخطوطتين المعتمدتين.

٤ - قمت بعرض النصوص على المصادر متتبعا الموشحات في جميع المراجع المطبوعة، وقد أثبت اختلاف الروايات في الهوامش بالنسبة للموشحات المنشورة في مظان اخرى.

٥ - شرحت بعض الالفاظ الصعبة وأوردت بعض التعليقات التي تراءى لى ان اثباتها ضرورى.

٦ - ترجمت لوشاحي الكتاب بصورة موسعة، استهدفت منها ان أرسم لكل وشاح

صورة واضحة الملامح مستخرجة من جميع ما كتب عنه وقد أثبت هذه التراجم بآخر الكتاب وهي كما سيرى القارىء حصيلة الغوص في بحر زاخر من التراث الاندلسي.

٧ ـ اعتبرت نسخة الزيتونة نسخة أما ، في مواضع النقص من نسخة السيد حسن ، وبالنظر لحصولي على النسخة الزيتونية في وقت متأخر فقد أثبت اختلافات النسختين في جدول مستقل ألحقته بهذه المقدمة ، وهذه الطريقة معمول بها عند المحققين وقد نص عليها الدكتور صلاح الدين المنجد في قواعد تحقيق المخطوطات ص ١٦ ـ اذ قال : (وفريق رابع لا يثبت الا النص ويجعل اختلاف الروايات مع التعليقات في آخر الكتاب) .

٨ ـ كتبت المقدمة .

٩ ـ ألحقت بالكتاب بعض الاستدراكات .

١٠ ـ اعددت الفهارس .

تلك هي الملامح العامة لخطة التحقيق ولدور كل واحد منا في هذا الكتاب .

موضوع الكتاب وما ألّف فيه من قبل :

ظهرت الموشحات في الاندلس في اواخر القرن الثالث الهجرى على يد رجلين من قرية (قبرة) هما محمد بن محمود الضرير ومقدم بن معافى في عصر الامير عبد الله بن محمد المرواني وكانت خلافته من ٢٧٥ هـ ـ ٣٠٠ هـ . لكن هذا الفن الشعرى الجديد لم يصبح فنا قائما بذاته الا على يد وشاح عبقرى هو عبادة بن ماء السماء المتوفى سنة ٤٢٢ هجرية ، ومع ذلك ظلت الموشحات فنا مسموعا يتحاشى جلة المؤلفين عن ايرادها قرنا كاملا بعد وفاة عبادة المذكور ، حتى جاء علي بن ابراهيم بن سعد الخير البلنسي المتوفى سنة ٥٢٥ هـ فألف كتابه « نزهة الانفس وروضة التأنس في توشيح اهل الاندلس » وقد ترجم فيه لعشرين وشاحا غير انه من المؤسف ان هذا الكتاب قد ضاع فيما ضاع من تراث الاندلس الخالد . وفي عام ٥٣٠ هجرية وفد محمد ابراهيم الحجاري على

عبد الملك بن سعيد صاحب قلعة بني سعيد باطراف غرناطه فمدحه بقصيدة فاعجب الممدوح به وبعلمه وسأله أن يصنف له كتابا في ادباء الاندلس فصنف كتاب – المسهب في غرائب المغرب – وقد تضمن قطعة من الموشحات نقلها ابن سعيد المتوفى بتونس سنة ٦٨٥ ه في كتابه – المقتطف من ازاهير الطرف – ، وعن الاخير نقلها ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ ه في مقدمته ، وعنه نقلها المقرى المتوفى سنة ١٠٤١ ه في ازهار الرياض

على ان ما يجب التنبيه اليه ان ما كتبه الحجارى ونقل عنه فيما بعد ، ليس مصدرا من مصادر الموشحات بل هو الى تاريخها اقرب . ومما تجدر الاشارة اليه هنا بالذات ان عبد الملك ابن سعيد واولاده واحفاده من بعده قد طوروا كتاب « المسهب » واضافوا اليه اضافات قيمة في فترة امتدت ١١٥ عاما ، والى علي بن سعيد وابيه موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد يرجع الفضل في تخصيص (اهداب) كتاب المغرب للموشحات والازجال ، لكن من حق العلم هنا ان تثبت ان عربيا من المشرق هو ابن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨ ه . قد سبق ابن سعيد في إفراد كتاب خصصه للموشحات هو – دار الطراز في عمل الموشحات – وقد ضم ٦٩ موشحا منها (٣٤) مغربية ، وجاء بعد ابن سعيد مشرقي آخر هو صلاح الدين الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ ه . فافرد للموشحات كتابه (توشيع التوشيح) وقد ضم (٦٠) موشحا منها (١٤) مغربية حتى اذا كان النصف الثاني من القرن الثامن الهجري الف ابن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦ ه كتابه (جيش التوشيح) هذا الذي يعد بحق أضخم مجموعة من الموشحات عرفت حتى زمنه إذ ضمت (١٦٥) موشحة لستة عشر وشاحا من اعلام التوشيح وقد أعقبه بعد ذلك – علي بن بشرى الغرناطي – الذى الف كتابا بعنوان « عدة الجليس ومؤانسة الوزير والرئيس » ضم اكثر من ثلاثمائة موشح وهو ما زال مخطوطا حتى اليوم ، منه نسخة فريدة لدى المستشرق الفرنسي كولان ، وفي أواخر القرن العاشر الهجرى جاء المقري المتوفى سنة ١٠٤١ ه فاورد في كتابيه الشهيرين – نفح الطيب – و – ازهار الرياض – أمثلة كثيرة من الموشحات لكنها تظل دون جيش التوشيح كما وكيفا .

ويمكن أن يضاف لما تقدم كتاب مجهول المصنف نشره السيد فيليب قعدان الخازن بعنوان – العذارى المائسات في الازجال والموشحات – اختاره نقلا عن مخطوطة في روما وفي هذا الكتاب مجموعة طيبة من الموشحات اكثرها مشرقية وبعضها مغربية كثير منها لم تذكر اسماء قائليها .

وقد لاحظنا انه ينقل بعض نصوصه عن كتاب – عقود اللئال في الموشحات والازجال لشمس الدين النواجي .

ويبدو ان جيش التوشيح أثار دويا ضخما في زمانه ذلك اننا نجد جهبذا من جهابذة الادب المغاربة في القرن العاشر هو وزير القلم عبد العزيز بن محمد الفشتالي (٩٥٢ – ١٠٣٢ هـ) يذيل عليه بكتاب سماه – مدد الجيش – ذكر فيه أزيد من ثلاثمائة من موشحات اهل عصره من المغاربة اغلبها مما قاله الوشاحون في أمير المؤمنين المنصور ابي العباس احمد الشريف الحسني وما قاله امير المؤمنين المذكور من موشحات وقد أورد المقري في نفح الطيب نخبة طيبة من موشحات مدد الجيش ، وقد ضاع هذا الاثر فيما ضاع من تراث المغاربة .

تلك هي المامة سريعة باهم مصادر الموشحات عبر العصور ، وهي المامة تؤكد ان لجيش التوشيح مكان الصدارة في الموضوع .

اهمية الكتاب :

يمكن اجمال اهمية الكتاب والاشياء الجديدة التي يقدمها في الآتي :

أ – ان مصنفه وشاح كبير انتهت اليه رئاسة التوشيح في زمانه ، فهو ذواقة له وزنه الكبير فيما اختاره وانتقاه . وكما كانت (حماسة) ابي تمام مصدرا ثرا وخالدا لمختارات الشعر العربي ، لمكانة أبي تمام الشعرية في زمنه ولسلامة ذوقه، وحسن اختياره ورهافة حسه ، كذلك أمر جيش التوشيح هذا في رأيي بالنسبة للموشحات الاندلسية .

ب – الكتاب أكبر مجموعة من الموشحات الاندلسية طبعت حتى اليوم ، اذ ضمت ١٦٥ موشحة ، أكثر من اربعة أخماسها ضائعة لا وجود لها في أي مرجع آخر .

ج – ضم الكتاب موشحات مختارة لستة عشر وشاحا من عصر المرابطين والموحدين

وهو عصر ازدهـار الموشح ، منهم عشرة وشاحين ضاعت جميع موشحاتهم ولم يبق من تواشيحهم غير ما ضمه هذا الكتاب .

د – نسب بعض الموشحات المجهولة الى أصحابها الشرعيين مثل الموشح الذي أوله :

عقارب الاصداغ   في سوسن غض

فقد نسبه ابن الخطيب الى ابن شرف (الحفيد) . وكان قد ورد في نفح الطيب وفي العذارى غير منسوب لاحد .

هـ – رد بعض الموشحات المنسوبة الى غير اصحابها ، الى قائليها مثل الموشح الذى اوله :

شق النسيم كمامه   عن زاهر يتبسم

فقد نسبه الصفدى في كتابه الوافي بالوفيات وابن شاكر الكتبي في كتابه فوات الوفيات الى ابن اللبانة ، وكشف ابن الخطيب خطل هذه النسبة ورده الى ابن الصيرفي .

و – وضع بين أيدي الباحثين من المهتمين بالخرجات الاعجمية في الموشحات الاندلسية (١٧) خرجة اعجمية لا وجود لها في أي مرجع آخر .

ز – رغم أن المصنف سالك في تراجمه التي حلى بها مختاراته الطريقة ذاتها التي سلكها في الكتيبة الكامنة وهي طريقة قليلة الجدوى من الناحية الاخبارية ، الا انه استطاع ان يضيف جديدا في بعض المواضع ، كما بالنسبة لابي الوليد يونس الخباز الذي لا توجد له ترجمة في أي مرجع مطبوع حتى اليوم . كما أضاف معلومات قيمة للغاية عند ترجمته للوشاح احمد بن مالك السرقسطي ، لا وجود لها هي الاخرى في اي مرجع آخر واحمد بن مالك هذا أورد له ابن سعيد في المغرب موشحة ، لكن محقق الكتاب الدكتور شوقي ضيف وهو من هو علما وطول باع لم يترجم له لانعدام المصادر ومن هنا تبدو اهمية ترجمته الواردة في جيش التوشيح هذا .

ح – رتب المصنف كتابه ترتيبا موضوعيا فأفرد لكل وشاح ترجمة اتبعها

بمختارات من موشحاته وهذا الترتيب الموضوعي ينفرد به هذا الكتاب دون جميع مصادر الموشحات المعروفة مثل : دار الطراز ، وتوشيع التوشيح ، ونفح الطيب ، وأزهار الرياض ، والعذارى المائسات وسواها ، اذ تختلط في هذه المراجع موشحات الوشاحين ببعضها دون ترتيب أو تصنيف .

ط — ان جل ما أثبته ابن الخطيب في كتابه هذا هو موشحات أندلسية نظمت في القرن السادس الهجري فهي صورة للعصر الذي قيلت فيه ، عصر ازدهار الموشح ، كما أنها تكشف عن كثير من العلاقات بين بعض الوشاحين وأمراء عصرهم .

ي — انه يضع مادة دسمة للباحثين عن اسلوب كل وشاح وخصائصه الفنية تمهيدا لدراسته ووضعه في مكانه اللائق به ، لقد كنا نقرأ قبل ذلك ما ذكره الصفدى في توشيع التوشيح مثلا : أن الابيض وبن رافع رأسه والكميت وابن شرف والمنيشي والصيرفي والخباز والجزار وبن لبون وبن رحيم وبن ينق واحمد بن مالك السرقسطي هم « ممن سبق الى التوشيح ، وسبق الى الغاية من اهل المغرب » . وكذلك كنا نقرأ ما أثبته ابن سعيد في المقتطف من أزاهير الطرف ونقله عنه ابن خلدون في المقدمة ثم المقري في ازهار الرياض ، عن اشتهار بعض من تقدم وتفوقه في ميدان التوشيح ، لكننا كنا نفتقد الدليل على ذلك ، حتى وقع بين يدنا هذا الكتاب ، فتوفرت به مادة قيمة يصح الحكم استنادا اليها .

ك — على انه من الاهمية بمكان الاشارة الى ان ابن الخطيب حتى في اختياراته لوشاحين مشهورين تحرى ان يورد في مختاراته لهم موشحات لا وجود لها في أي مرجع آخر ، وعلى سبيل المثال :

— ابن بقي — فقد أورد له تسع موشحات منها واحدة فقط معروفة والثمانية الاخر لا وجود لها في اي مرجع آخر .

ومثل هذا يقال عن موشحات الاعمى التطيلي فقد اختار له (١٩) موشحة ، (عشرة) منها لا وجود لها في أي مرجع آخر .

وكذلك الامر مع ابن زهر ، فقد اورد له ابن الخطيب عشرة موشحات نصفها لا وجود لها في أي مرجع آخر .

ويسري ما تقدم على ابن اللبانة – فقد أثبت له ابن الخطيب (تسع) موشحات (ست) منها لا وجود لها في أى مرجع آخر .

حول نسبة بعض الموشحات :

ويثور شك حول نسبة بعض الموشحات الواردة في جيش التوشيح لاصحابها يمكن تلخيصه في الآتي :

١ – الموشح رقم ٣ واوله : بأبي ظبي حمى تكنفه اسد غيل
نسبه لسان الدين ابن الخطيب الى ابن بقي .

وقد اورده ابن سناء الملك في دار الطراز ولم ينسبه لاحد ، وفي مخطوطة المقتطف من ازاهير الطرف لابن سعيد الورقة ٤١ وعنها نقل ابن خلدون في مقدمته ص ١١٣٨ ما مفاده : ان ابا بكر ابن زهر الوشاح قال : كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله :

بدر تم شمس ضحى غصن نقا مسك شم
ما اتم ما اوضحا ما اورقا ما انم
لا جرم من لمحا قد عشقا قد حرم

وهذه الاشطار هي من الموشح الذي اوله : بأبي ظبي حمى

ومعنى هذا ان ابن سعيد ينسب هذا الموشح لعبادة القزاز ، ولما كان ابن سعيد قد توفى عام ٦٨٥ ﻫ فهو اسبق من لسان الدين وبالتالي قد ترجح روايته بسبب ذلك .

٢ – الموشح رقم – ١٩ – واوله :

ادر لنا اكواب ينسى بها الوجد واستصحب الجلاس كما اقتضى العهد

نسبه لسان الدين للاعمى التطيلي وكذلك ورد في ديوانه نقلا عن الجيش . وقد ورد هذا

الموشح في دار الطراز دون ان ينسب لاحد . وفي العذارى المائسات انه لابن بقي . وارى ان الدليل الداخلي يعزز انه لابن بقي ، فالممدوح فيه هو يحيى ، والارجح انه يحيى بن القاسم ممدوح ، ابن بقي الشهير ،

٣ — الموشح رقم — ٢٠ — واوله :

صبرت والصبر شيمة العاني ولم اقل لمطيل هجراني أليس كفاني

نسبه لسان الدين للاعمى التطيلي وكذلك ورد في ديوان الاعمى نقلا عن الجيش ، لكن ابن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨ ه نسبه في دار الطراز في عمل الموشحات لابن بقي ، وفي راينا ان نسبته لابن بقي اصوب بالدليل الداخلي ، فمن قراءة النص يتضح انه كتب في (يحيى من بني القاسم) ومن المعروف ان ابن بقي انقطع بعد طول تنقل الى الامير يحيى بن علي بن القاسم وكان يعيش في سلا بالمغرب وانه كتب في الامير المذكور اجود مدائحه فالموشح للسبب المذكور الصق بابن بقي .

٤ — الموشح رقم — ٢١ — واوله :

اعيا على العود رهين بلبال مؤرق

نسبه لسان الدين الى الاعمى التطيلي ، وكذلك الامر في ديوان الاعمى نقلا عن الجيش وقد ذكره ابن سناء الملك في دار الطراز دون ان ينسبه . ونحن نرى انه بابن بقي اعلق بسبب ما جاء في مقدمة ابن خلدون ص ١١٣٩ وهذا نصه :

وذكر الاعلم البطليوسي انه سمع ابن زهر يقول : ما حسدت قط وشاحا على قول الا ابن بقي حين وقع له :

اما ترى احمد في مجده العالي لا يلحق
اطلعه الغرب فأرنا مثله يا مشرق

وقد اورد المقرى هذا النص في ازهار الرياض ج ٢ ص ٢٠٩ وهذه الخرجة هي خرجة الموشح رقم ـ ٢١ ـ المتقدم الذكر .

٥ — الموشح رقم — ٢٦ — واوله :

ما الشوق الا زناد يوري بقلبي كل حين نيرانا

نسبه لسان الدين للاعمى التطيلي وجاء في المغرب ج ٢ ص ٢٥ انها موشحة مشهورة

لابن بقي . ومن الدليل الداخلي نميل الى ترجيح ما اثبته ابن سعيد حولها لان فيها جملة اوصاف لا تتسير الا لمن ملك نعمة البصر وهو ما كان التطيلي محروما منه .

٦ – الموشح رقم ٩٠ – واوله :

جرر الذيل ايما جر   وصل السكر منك بالسكر

نسبه لسان الدين لابي بكر يحيى الصيرفي ، لكن شكا كثيفا يثور حول هذه النسبة بسبب قصة اوردها ابن سعيد في الورقة ٤١ من المقتطف من ازاهير الطرف نقلها عنه ابن خلدون في مقدمته ص ١١٤٠ ونقلها عن الاخير المقرى في ازهار الرياض ج ٢ ص ٢٠٩ وقد جاء فيها ما نصه : « وكان في عصرهما ايضا الحكيم ابو بكر بن باجة صاحب التلاحين المعروفة . ومن الحكايات المشهورة انه حضر مجلس مخدومه ابن تيفلويت صاحب سرقسطه ، فألقى على بعض قيناته موشحته التي اولها :

جرر الذيل ايما جر   وصل الشكر منك بالشكر

فطرب الممدوح لذلك ، فلما ختمها بقوله :

عقد الله راية النصر   لامير العلا ابي بكر

وطرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت ، صاح : واطرباه ، وشق ثيابه ، وقال : ما احسن ما بدأت وما ختمت ، وحلف بالايمان المغلظة لا يمشي ابن باجة الى داره الا على الذهب فخاف الحكيم سوء العاقبة فاحتال بان جعل ذهبا في نعله ومشى عليه » . .

تلك هي القصة ، وقد اوردها ابن سعيد اول من اورد وهي تنسب هذا الموشح لابي بكر بن باجة وابن سعيد اقدم من ابن الخطيب واقرب الى عصر الوشاحين المذكورين

٧ – الموشح رقم – ٩٧ – واوله :

شق النسيم كمامه   عن زاهر يتبسم
فلا تصخ للملامه   وانصت الى الزير والبم

نسبه لسان الدين الى ابي بكر يحي الصيرفي ، في حين نسبه الصفدي في الوافي بالوفيات ج ٤ ص ٢٩٩ الى ابن اللبانة ، كما اورده ابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات ج ٢ ص ٥١٧ منسوبا لابن اللبانة ايضا

فاذا وضعنا في حسابنا ان الصفدي والكتبي توفيا في عام واحد هو عام ٧٦٤ ﻫ وهو تاريخ سابق على وفاة ابن الخطيب علمنا ان لهذا الشك قيمته ، ربما قيل انهم متعاصرون وان اهل مكة ادرى بشعابها . وبالتالي فان ماذكره ابن الخطيب اصوب والله اعلم

رأي في الخرجات :

من المعلوم ان الخرجة هي آخر قفل في الموشح ، وهي الجزء الوحيد منه الذي يجوز فيه اللحن بل ويستظرف . وخرجات جيش التوشيح ثلاثة انواع : بعضها فصيحة معربة ، وبعضها ملحونة عامية وبعضها اعجمية .

وقد لاحظنا ان بعض خرجات جيش التوشيح مستعارة من خرجات وشاحين آخرين مثال ذلك خرجة الموشح رقم — ١٣٦ — فالموشح المذكور هو للوشاح ابي بكر بن رحيم ومطلعه :

أبى ان يجود بالسلام فكيف يجود بالوصال من كان تحية الوداع منه نظرة الى الجمال

اما خرجته ونصها :

خلقت مليح علمت رامي فليس نبقى ساعة دون قتال ونعمل بذى العينين متاعي
ماتعمل يدي بالنبال

فهي لابن حيون ، الزجال الاندلسي الشهير ، اوردها ابن خلدون في مقدمته ص ١١٤٤ ضمن زجل اوله :

يفوق سهمه كل حين بما شئت من يد وعين

كما لاحظنا محاولة بعض الوشاحين اقتباس معاني خرجات وشاحين آخرين والنسج على منوالها ، فلقد تأثر — ابن ينق — بخرجة ابن بقي الشهيرة التي نصها :

اما ترى احمد في مجده العالي لا يلحق
اطلعه الغرب فأرنا مثله يا مشرق

وحاول النسج على منوالها فختم موشحته المرقمة — ١٤٤ — بالخرجة التالية :

اما ترى السيد   في المرتقى العالي   لا يلحق
كان له الغرب   إذ حازه كله   والمشرق

وواضح ان الخرجتين من مقلع واحد . ان الشيء المهم الذي يقدمه لنا جيش التوشيح في هذا الشأن هو وجود ١٧ خرجة اعجمية فيه ، ولقد أثارت الخرجات الاعجمية منذ اكتشافها اهتمام المستشرقين وعلى الاخص الاسبان ومنهم خوليان ريبيرا ومنديث بيدال واميليوغرسيه غوميز فحاولوا وضع نظرية خاصة حولها وتابعهم في ذلك بعض الاساتذة العرب كالدكتور مصطفى عوض الكريم مؤلف كتاب فن التوشيح .

وفي اعتقادى ان هذه النظرية غير صحيحة للاسباب التالية :

١ — انها استندت على افتراض نظري محض خلاصته ان هذه الخرجات تمثل بقايا الشعر الغنائي الروماني الذى سبق الموشحات ، وهو شعر افترض وجوده — بلا دليل — المستشرق — ريبيرا — افتراضا نظريا ، وتخمينيا ، فاقره على ذلك المستشرق — غرسيه غوميز ، رغم ان النظرية كلها قائمة على افتراضات محضة فاين هو النموذج الشعرى الروماني الكامل الذى تعد (خرجة) الموشح بقية منه ؟ ؟

٢ — ان المستشرق (غرسيه) قد استند في دعم نظريته على تفسير كلام ابن بسام في كتابه الذخيرة إذ قال متحدثا عن شاعر قبره :

وكان يضعها على اشطار ، غير ان اكثرها على الاعاريض المهملة غير المستعملة ياخذ اللفظ العامي والعجمي فيسميه المركز ويضع عليه الموشحة »

فابن بسام لم يصرح بان الشاعر ياخذ الخرجة من الشعر الغنائي الروماني ولو اراد ذلك لقاله أو لقال : انه ياخذ البيت او الشطرة وفرق كبير بين اللفظة والشطرة . نص ابن بسام اذن لايساعد على التفسير الذى ذهب اليه الاستاذ ـ غرسيه ـ القائل ان الموشح لم يكن في الاصل سوى اطار جعل للاحاطة بخرجة رومانية كانت تؤخذ كما هي من التراث الشعرى للشعوب الرومانية المغلوبة على أمرها .

٣ ـ ان مجرد كون بعض الخرجات الرومانية موزونة وزنا عربيا لدليل آخر على انها ليست من الشعر الغنائي الروماني .

٤ ـ ان ابن سناء الملك وهو اقدم من حاول ان يقنن قواعد الموشحات قد أكد ان صاحب الموشح هو الذي يعمل الخرجة وذلك حين قال ـ دار الطراز ص ٣٢ ـ : « وقد تكون الخرجة اعجمية اللفظ بشرط ان يكون لفظها ايضا في العجمي سفسافا نفطيا ورماديا زطيا ، والخرجة هي ابزار الموشح وملحه وسكره ومسكه وعنبره ، وهي العاقبة وينبغي ان تكون حميدة والخاتمة بل السابقة وان كانت الاخيرة ، وقولي السابقة لانها التي ينبغي ان يسبق الخاطر اليها . ويعملها من ينظم الموشح في الاول ، وقبل ان يتقيد بوزن او قافية ، وحين يكون مسيبا مسرحا ومتبحبحا منفسحا ، فكيف ما جاءه اللفظ والوزن خفيفا على القلب انيقا عند السمع مطبوعا عند النفس حلوا عند الذوق تناوله وتنوله وعامله وعمله وبنى عليه الموشح لانه قد وجد الاساس وامسك الذنب ونصب عليه الراس » .

ان كلام ابن سناء الملك يؤكد بوضوح ان بعض الخرجات قد تكون اعجمية ولكنها من نظم صاحب الموشح لاسواه .

٥ ـ اذا لم تكن الخرجة من التراث الشعرى الروماني ، بسبب انعدام الدليل ولان قول ابن بسام لايساعد على هذا التخريج ولان كلام ابن سناء الملك يناقضه تماما ، ثم لان وزنها العربي ينفي كونها شعرا رومانيا فما هي اذن ؟ انني اقدم هنا باختصار ما اظنه تفسيرا للخرجة الرومانية في بعض الموشحات العربية ،

وخلاصة نظريتي :

ان الامة العربية قد جاورت عديدا من الامم والشعوب . وقد نشأت عن هذه المجاورة ازدواجات لغوية كثيرة ، ففي المشرق نشأ شعراء كتبوا الشعر باللغتين العربية والفارسية منذ التقت الحضارتان والثقافتان في بواكير العصر العباسي بل وايام العصر الاموى ايضا .

وفي شعر ابي نواس (الحسن بن هاني) نماذج شعرية كتب بعض اشطارها بالعربية الفصحى وبعضها الاخر باللغة الفارسية كقوله :

يا غاسل الطرجهار للخندريس العقار
يا نرجسي وبهاري بده مرايك باري

والطرجهار هو قدح الشراب بالفارسية ومعنى الشطر الاخير: اعطني مرة واحدة.

ومثله قول جلال الدين الرومي في المثنوي :

جملة كفتند اى حكيم باخبر الحذر دع ليس يغني من قدر
تاتواني دم مزن اندر فراق ابغض الاشياء عندي الطلاق

ومعنى الشطر الاول يقول الناس ايها الحكيم المحنك ، ومعنى الشطر الثالث لا تبق لحظة على فراق .

ومثله قول حافظ شيرازى :

درونم خون شدازناديدن دوست الا تعسا لايام الفراق

ومعنى الشطر الاول : باطني صار دما من عدم رؤية الحبيب .

وكقول سعدى شيرازى في كلياته :

توخون خلق بريزى وردي دزتابى ندا نمت جه مكافأت باين كنايابي
تصد عني في الجور والنوى لكن اليك قلبي يا غاية المنى صابي

ومعنى الشطر الاول انت تريق دم الخلق على حين وجهك مشرق ، ومعنى الشطر الثاني لا ادري اى جزاء تجد في هذا الاثم .

لقد سمي هذا اللون من الشعر في المشرق (الملمع) تمييزا له عن سواه وفيما بعد ظهرت في المشرق ازدواجات اخرى بين اللغتين العربية والتركية والعربية والكردية في الشعر العراقي خاصة ليس هنا مجال تفصيلها ، والذى نريد ان تقوله هنا : ان كتابة الملمع في المشرق راجعة بالدرجة الاولى الى وجود شعراء يحسنون النظم بلغتين او

اكثر فهم يملحون ويطعمون شعرهم بهذا اللون المبتكر الذى ابتكره المشارقة في وقت مبكر جدا . مثل هذا يمكن ان يقال عن الخرجات الرومانية في شعر الاندلسيين فهي اقفال كتبها شعراء عرب– اندلسيون – كانوا يحسنون اللغتين العربية والرومانية الدارجة معا فهم لم يقتبسوا هذه الخرجات من الشعر الغنائي الروماني كما اعتقد المستشرق (غرسية) وانما كتبوها هم لانهم في الاصل كتبوا الموشحة باللغتين العربية والرومانية فالخرجة الرومانية اذن قفل لموشحة كتبها شاعر عربي بالعربية الفصحى ثم ختمها بخرجة من نظمه هو باللغة الرومانية ليملح بذلك موشحته ويزيدها مسكا وعنبرا . فلا علاقة للشعر الغنائي الروماني بذلك .

٦ - ومما يؤكد ما تقدم ان بعض الشعراء العرب في الاندلس طعموا موشحاتهم ولمعوها بخرجات هي في ذاتها مزيجة من اللغتين اى ان الخرجة هنا ليست اسبانية صافية وانما هي مزيج من العربية والاسبانية : ومثل هذه الخرجات لا يمكن تفسيرها الا بان الشاعر يتقن في الاصل اللغتين معا ونظم خرجته بهما معا في ازدواج لغوى ووحدة في المعنى وبوزن عربي .

مثاله قول ابن بقي في خاتمة موشحة له :

الب ديه اشت ديه   دى ذا العنصر حقا
بشترى مو المدبج   ونشق الرمح شقا

ومعنى هذه الخرجة بجملتها : هذا اليوم يوم فجرى انه يوم عيد العنصرة ، سوف البس ثوبي المزين واشق الرمح شقا .

ومن خرجات جيش التوشيح المزدوجة اللغة ، والتي كتبت بالاسبانية والعربية معا ، خرجات الموشحات التالية : ٢ ، ٤ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٧ ، ٧٨ ، ١٠٠ ، ١٠٧ ، ١١٥ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٦٣ .

وهذه الخرجات زاخرة بالالفاظ العربية ، فهي ليست بلغة اسبانية صافية ليقال انها بقية من اغنية اسبانية قديمة ، وعلى كل حال فانني اعتقد ان هذه الخرجات المزدوجة تشكل نقطة الضعف الاساسية في نظرية المستشرقين الاسبان المذكورين .

ثم ان ابن سناء الملك قد جعل بعض خرجاته باللغة الفارسية ، فهل يصح القول بان هذه الخرجات منسربة الى شعره من الشعر الغنائي الفارسي ، مع انه من الثابت انه كان يتقن الفارسية وانه كتب بعض خرجاته بها ، ومما يؤيد ويؤكد صحة وجهة نظرنا مايشيع في هذه الايام من شعر الانكلو آراب وهومزيج من العربية والانكليزية يكتبه بعض شعراء عدن والمحميات ومنه قول الشاعر .

ايها الناس افيقوا   انما الدنيا   FINISH
كيف ترضون بعيش   همنا رز و   FISH
قاتل الله سجونا   تجعل اللون   REDDISH

فهل يصح القول بان الالفاظ والاشطار الانكليزية الموجودة في هذا الشعر قد انسربت اليه من الشعر الغنائي الانكليزي ؟ الجواب بالنفي طبعا ، والاصوب في التفسير القول بانها حصيلة شعراء احسنوا اللغتين وكتبوا بهما معا .

في كانون الاول من هذا العام (ديسمبر ١٩٦٧) زارني في مكتبي المستشرق الاسباني الدكتور جوزيف ، م . صولا . صول . معربا عن رغبته في الاطلاع على ما تحت يدى من نسخ جيش التوشيح فيسرت له ذلك فورا ، ولقد سرني ان اعلم انه بصدد اعداد دراسة علمية رصينة عن الخرجات الاسبانية في الموشحات الاندلسية. فهو من اقدر الناس على ذلك ، علما وكفاءة .

وفي رأيي ان هذه الدراسة ستكون اضافة قيمة لجيش التوشيح كما انها ستزيح الستار عن معاني تلك الخرجات وتجلوها للقراء بابهى ثوب .

استدراكان :

١ ـ كنت قد أوردت في ترجمة الاعمى التطيلي ـ ص ٢٣٢ ـ ما نصه : « وقيل له : كم تقع في الناس ؟ فقال : انا اعمى ، وهم لايبرحون حفرا فما عذري في وقوعي فيهم؟ فقال له السائل : والله لا كنت قط حفرة لك ، وجعل يواليه بره ورفده . »

نقلته عن ترجمة الدكتور جودت الركابي للتطيلي الواردة في صفحة ١٤٩ من دار الطراز ، ثم اتضح لي وهم ما ذكره الدكتور وما نقلته عنه ذلك ان المقصود بهذا الخبر هو ابوبكر محمد الاعمى المخزومي لا التطيلي كما جاء في الجزء الاول ص ٢٣٠ من المغرب في حلى المغرب .

٢ ـ كذلك سقطت اثناء الطبع الفقرة التالية من ترجمة أبي عبد الله ابن ابي الفضل ابن شرف وموضعها آخر الصفحة ٢٤٨ وهذا نصها :

وجاء في المغرب في حلى المغرب ج ٢ ص ٢٣٢ ما نصه : « انه كان فيلسوفا أديبا ، ومن السمط ذو السلف والشرف ، والنخب والطرف ، وذكر انه أعتبط شابا وأنشد له :

ملامكما ظلم علي وعدوان　　فكفا ولو أن الملامة إحسان
تقولان من اضناك شوقا ولوعة　　اولئك احبابي يكونون من كانوا
هم زهرة الدنيا على انهم جفوا　　وهم موضع اللقيا ولو انهم بانوا

ومنها :

وحولى من الاعداء واش وكاشح　　وغيران مرهوب اللقاءة شيحان
وصفراء مرنان لفرقة إلفها　　وابيض مكسو وأسمر عريان

واورد له موشحة اولها :

« يا ربة العقد　　متى　　تقلد »

هل وصل الينا « جيش التوشيح » كاملا !!

سؤال جال بالخاطر غير مرة ، ذلك أن مخطوطة السيد حسن عبد الوهاب ناقصة الآخر فلايصح الحكم استنادا اليها في هذا الخصوص . وعبارة : « انتهى بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه الجميل » الواردة في آخر مخطوطة الزيتونة هي من وضع الناسخ على

الارجح فما الحقيقة اذن ؟

لقد نص ابن الخطيب في ترجمته لنفسه في ذيل الاحاطة ان جيش التوشيح في سفرين ، ولكن ما هو مدلول السفر عنده ؟

في رأينا أن مدلول السفر عند لسان الدين ليس له ضابط ولامقياس موحد ، فبينما نجدأن مدلول السفر في « ريحانة الكتاب » التي وصلتنا كاملة يناهز السبعين صفحة نجد مدلول السفر في « نفاضة الجراب » التي وصلنا منها سفر من أربعة أسفار يجاوز ذلك بكثير اذيبلغ ٣١٨ صفحة .

مدلول السفر اذن لاينتهي بنا الى نتيجة ، ولابد من البحث عن دليل آخر لمعرفة الحقيقة . وهذا الدليل كامن في الفترة الزمنية التي عاشها شعراء المخطوطة التي بين أيدينا انجميع وشاحي المخطوط عاشوا في القرن السادس الهجري .

والسؤال هل اكتفى ابن الخطيب بهؤلاء فقط أم انه اختار ايضا لوشاحي القرن السابع والنصف الاول من القرن الثامن الهجريين ؟ ؟

اننا نرجح الاحتمال الثاني ومعنى ذلك ان ما وصلنامن جيش التوشيح هو السفر الاول فقط ، اما السفر الثاني الذي ضم وشاحي القرن السابع والنصف الاول من القرن الثامن الهجريين فقد ضاع ، او انه لم يصلنا وقد تكشف عنه الايام .

كيف ولد المشروع :

الفجر في « لوشة » يفتق أزراره، ويشق حجبه واستاره، والزمن ليلة من خريف عام ١٩٦٣ ، وعربي من أقصى المشرق، من عراق العرب ـ كان آنذاك ممثلا دبلوماسيا لوطنه في اسبانيا ـ قد استعصى عليه النوم . لقد أمضى الليل كله وهو يبحر في شعر لسان الدين وموشحاته ابحارا روحيا عجيبا. فلما آذن الليل بالرحيل وانطفأ بريق آخر كوكبة من نجومه كان خيال ابن الخطيب يطوف به من كل ناحية ، ورقيق من موشحاته آت من البعيد البعيد ؟ عبر الزمن وعبر المحن يذوب في سمعه وينداح في قلبه معا .

كان ذلك العراقي هو كاتب هذه السطور وقد طوح بي الارق الى الطريق ، فوقفت عند أثر يسمونه ـ الجب ـ تروى عنه عجائز الاسبان ما شئن من الاساطير ، وهو فيما خيل الي مسجد قديم . فتراءى لي أن ابن الخطيب قصد هذا المسجد مرات ومرات وان خيالا منه ما زال هناك يركع ركعته الاخيرة . ومضت بي قدماي الى ضفة نهر « شنيل » متلمسا أنفاس ابن الخطيب في صباه . كانت امواج « شنيل » تلثم أقدام الشاطيء بصوت أقوى من الخرير وأوهى من الهدير ، ومع اطلالة الفجر تواردت الى خاطرى اسراب من أبيات ابن الخطيب وباقة فواحة من موشحاته . لكن موشحته التي أولها :

قد حرك الجلاجل   بازي الصباح   فيا غراب الليال   حث الجناح

ظلت تلح علي فيترنم بها القلب وتصطفق الضلوع ثم تختلج بها كل جارحة من جوارحي، وعلى غرة وبعمق ، أحسست أن أصنع شيئا من أجل هذا الاديب العبقري ...

في تلك اللحظات الشاعرية العجيبة ولدت فكرة البحث عن « جيش التوشيح » وتحقيقه ونشره . ولقد خيل لي آنذاك انني أعاهد الاديب العظيم على الوفاء بالفكرة وأن ابتسامة تشجيع قد ارتسمت على محياه . . .

كان ذلك كله في خريف عام ١٩٦٣ .

* * *

الربيع في المغرب يبسط ظله الوارف في كل مكان ، وازهار اللوز المتفتحة تلوح كاسراب من الحسان يلتحفن بالسفاسر (١) البيضاء الحلوة ، والزمن عصر يوم من مارس ١٩٦٧ وانا واقف على قبر ابن الخطيب عند باب المحروق في فاس . ولئن تجسدت لي ـ في وقفتي تلك ـ مأساته مرة اخرى ، فلقد سرني ان ارى ضريحه وقد تناولته يد الاعمار بما يليق بمكانة الراقد فيه، كما سرني ان يطلق اسم ابن الخطيب على مستشفى ضخم يمتد الى جواره . كان البحث قبل ذلك قد يسر لي الظفر بنسخه خاصة من جيش

---

(١) العباءات البيض النسائية وواحدها سفساري

التوشيح وقطعت مرحلة مهمة في تحقيقها ولقد كان يراودني امل في أن اظفر بنسخة اخرى من الكتاب ضمن كنوز مخطوطات القصر الملكي بالرباط التي كانت قيد الفهرسة ، لكن المحقق الثبت الصديق محمد ابراهيم الكتاني وهو احد المشرفين على فهرستها اعلمني في الرباط بعدم وجود نسخة منه في المغرب الاقصى كله فلما قرأت الفاتحة على قبره ، خيل الي ان ابن الخطيب قد اطل من وراء الحجب ، وان ابتسامة سرور وعرفان لاحت على وجهه . فلما عدت الى تونس بذلت جهدا ضخما متواصلا — لامجال لتفصيله هنا — حتى تعود نسخة الزيتونة المستعارة الى موضعها فنفيد منها وهكذا كان .

شكر وتحية : وبعد فاني اتوجه بالشكر العميق الى عميد المؤرخين التونسيين السيد الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب لتفضله باعارتي مخطوطته من جيش التوشيح ، محييا فيه روحه العلمية السمحة التي عرف بها طوال حياته . كما أتوجه بالشكر الى العالم المفضال الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور لتكرمه بالاذن في تصوير مخطوطة الزيتونة من جيش التوشيح ، وهو فضل له سبقته افضال يذكرها فيشكرها هذا العاجز الفقير الى رحمة ربه . كما اعبر عن شكري وامتناني لسفير الادباء واديب السفراء الاخ عبد الهادي التازي لتفضله مشكورا بتصوير قبر ابن الخطيب بفاس تلبية لطلبي .

ثم اني لارجو ان يدحض هذا الجهد مزية الزاعمين بانصراف المشارقة عن أدب المغاربة ، وان يؤكد من جديد وحدة هذه الامة ، مغربا ومشرقا .

والله من وراء القصد .

تونس

هلال ناجي